فوكوياما: السياسي الواقعي 3-3

15-6-2005

يبتعد المؤرخون عن الحقيقة كلما اقتربوا من السياسة، حتى إذا كتب السياسيون التاريخ فقد أوردوك البحر، وعليك أن تحتاط منهم بكل وسيلة، وإلا فستهرب الحقيقة منك، وسيغرقونك في مماحكاتهم ومذكراتهم، وعندما يتحقق السياسيون من الغرق يمسكون بحبل التبرير والفلسفة. فعل هذا كثيرون جدا، ومن أجل كثرتهم نجد منهم مشهورين مهمين،

بقلم د. محمد الأحمري

مواد ذات علاقة

فوكوياما الشخص -1

فوكوياما: مثقف الاحتلال 2-2

يبتعد المؤرخون عن الحقيقة كلما اقتربوا من السياسة، حتى إذا كتب السياسيون التاريخ فقد أوردوك البحر، وعليك أن تحتاط منهم بكل وسيلة، وإلا فستهرب الحقيقة منك،وسيغرقونك في مماحكاتهم ومذكراتهم، وعندما يتحقق السياسيون من الغرق يمسكون بحبل التبرير والفلسفة. فعل هذا كثيرون جدا، ومن أجل كثرتهم نجد منهم مشهورين مهمين، فلو لم يفشل (ابن خلدون) في إحدى عشرة وزارة لما تفلسف، ولما نضجت أقواله، ولو لم يذق (هيجل) مرارة القهر لما طوّح في شعاب فلسفة التاريخ، ولو لم يفشل (ماركس) في الوظيفة وفي الثورة لما صنع من التاريخ سيفا يقبضه يتحكم به، ويهز به قناعات الآخرين. وغربت الطموحات والمناصب من يدي (توينبي)، توزع وتباع يمينا وشمالا، وهو الشاب الذي صمم بعض المواقف في مؤتمر الصلح بعد الحرب الأولى، وبالرغم من نبوغه المبكر، إلا أن حظه كان عاثرا؛ فكتب لنا أحسن نصوص فهم التاريخ، تلك التي رأى فيها بعض الإسلاميين انسجاما مع عقيدتهم لا مثيل له.

وبما أن التاريخ هو السياسة بعد أن تخف درجة حرارتها، فإن حالنا مع فهم المسألة التاريخية يصدق عليها وصف العلامة (محمود محمد شاكر) إذ يقول: (لا أعلم نكبة نزلت بالشرق العربي والإسلامي بلدا بلدا كانت أفحش أثرا وأشأم عاقبة من نكبة النسيان والغفلة) ص 947 من جمهرة مقالاته. ثم يتحدث عن خلود نزعة الاستعمار لدى الغربيين، وأنهم يقسمون العالم إلى قسمين عالم السادة وعالم العبيد، هم السادة وغيرهم العبيد، وأنهم يتعاونون أشد التعاون في التحكم في أمور العبيد، حتى تجد أن الدولة الغربية عندما لا تقدر وحدها أن تستعمر بلدا عربيا مسلما فإنها تعاون القادرين من الغربيين، وترسل الجنود والعتاد حتى فيما لا يظهر أن لها مصلحة فيه، لتساعد قومها على تدمير وإذلال واستعمار بلد عربي مسلم، وتقهر دول الاحتلال الشعوب المقهورة حتى لا يصبح لها قيمة إلا بمقدار أهميتها في خدمة المستعمر. وذلك بعض ما أشار له شاكر.

ثم تقوم بنشر ثقافة اليأس من الاستقلال والحرية، وتجعل الحرية والكرامة في أعين المسلمين شرا خالصا، وخطرا لا يحتملونه، حتى يرو الذل والاستكانة والتبعية طريقهم الوحيد للبقاء، وذلك ما تسمعونه يتردد هذه الأيام، من قهر للمقاومة في المستعمرات، حتى لا تفكر ولا تأمل في الاستقلال.

والهاجس الإسلامي التاريخي في عقول الغربيين بالغ الحضور، فهذه رئيسة وزراء بريطانيا تاتشر، تتحدث قبل دخول العراق للكويت، في 27 حزيران 1990م، كما نقلت عنها إذاعة البي بي سي، أشارت إلى أن القوات البريطانية يجب أن تبقى على حالها دون تخفيض؛ لأن أوروبا قد تحتاج إليها لمواجهة نهوض إسلامي محتمل. راجع: (فصول من تاريخ الإسلام السياسي. ص 434.) وهذه الرسالة التي تتحدث عنها (تاتشر) سبقها لها (ول ديورانت)، الذي يرى أن: "الولايات المتحدة عليها أن تقوم بالدور الذي كانت تقوم به بريطانيا العظمى ببراعة كبيرة في القرن التاسع عشر، أي حماية الحضارة الغربية من الخطر". ص 159 من كتاب: "دروس التاريخ". ويقول: (فالحرب في التفسير العسكري للتأريخ هي الحكم الأخير، يتقبلها الجميع كشيء طبعي وضروري، باستثناء الجبناء والسذج. فما صان فرنسا وإسبانيا عن أن تصبحا مسلمتين غير انتصار (شارل مارتل) في موقعة تور (بلاط الشهداء) عام 732م، السابق، ص 158.

ومن العجيب أن مواجهة الأمم الشرقية والحرب معها في عين شخص هو المؤرخ الأهم في التاريخ الأمريكي كاتب "قصة الحضارة"، يرى أنه: (قد يؤدي الجهد المبذول في الوقت نفسه لمواجهة تحدي الشرق الصاعد إلى إعادة إنعاش الغرب.) ص 19 المصدر السابق. وتلك مسألة قديمة ترتبط بالحروب الصليبية الفاشلة في إبقاء الشرق تحت ربقتهم، ولكنهم يرون اليوم أن الحروب الصليبية كانت مفتاح قوة ومهارة ووحدة وانتشار الشعوب الأوروبية حول العالم، وأنه كان لها أثرها في حركة الإصلاح الديني، وذلك

ما يروجه دارسون جدد يهمهم إعادة مهد المسيحية للمسيحيين الغربيين، وإبقاء واستقرار جيوش صليبية في الشرق العربي. ولهذه المذهبية الجديدة أنصار ودارسون مسموعة أصواتهم في الغرب. وكثيرة تلك الدراسات التي تنادي بالحرب مع المسلمين؛ لأنها تعيد التماسك والوحدة والتدين للغرب الذي فقد روحه.

تقولون: ما علاقة هذه النقول بنهاية التاريخ؟

علاقتها أننا وجدنا هؤلاء الكتاب ممن يتظاهرون بمواقف فلسفية عامة، وآراء يحبون أن يلبسوها شعارات عالمية واسعة تتجاوز دولهم وأحزابهم، ومصالح السياسة الجارية يوميا لأممهم، خطأ كانت أو صوابا، وجدناهم ناسامن الناس،تدفعهم ثقافتهم ومهادهم الثقافي وبيئتهم التي نشأوا فيها ومناصبهم في حكوماتهم إلى العمل على نيل مكسب سريع عارض، ويصرون على صياغة مواقف استعمارية حادة، ومزعجة للشعوب المضطهدة، ويجد هؤلاء من بيننا من يصدق أن هذه الفلسفات بريئة من الغرض الاستعماري، وكم يسرنا أن نجد في ثقافتهم ثقافة أقل تحيزا، ولكن كما نقلت في الحلقة الثانية نصوصا من كلامه، فإنه لا يختلف عن موجه لثقافة الاحتلال، وكاتب استعماري تتجدد مهمته مع تجدد مصلحته، ولم لا؟ فدارسون كبار سبقوه لم يختلف دورهم عن دور تأييد الاحتلال وقمع الشعوب المضطهدة، تعجبون من (جيبون) كاتب كتاب اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية، فقد كان عضوا في البرلمان البريطاني، ووقف موقفا استعماريا قاسيا ضد استقلال أمريكا، لأنه كان يفكر بعقل السلطة البريطانية والرومانية خائفا من سقوط المستعمرات في أيدي سكانها، وبعده بأكثر من قرن كان المؤرخ والسياسي والمتنبي النبه، (توكفيل) مؤيدا لاحتلال الجزائر، واقفا ضد حريتها، وهو أهم مروج لـ: "الديمقراطية الأمريكية".

* حفلة نهاية التاريخ:

المقالة الأولى لفوكوياما قبل تطويرها إلى كتاب حوت فكرة مهمة، "إنها لا تزيد عن فذلكة للانتصار على روسيا، ومشاركة ذكية في حفلة النصر"، كانت مدفوعة ومبنية على قضية واحدة: نحن انتصرنا على روسيا لأنه ليس في العالم فكرة أحسن ولا أقوى من فكرتنا، ولم يبدع البشر خيرا مما أبدعنا، والسبب يعود إلى جهدنا، وهو منطق قارون بعد أن اجتمع له المال أن يقول: "إنما أوتيته على علم عندي"، وهي الفلسفة البعدية لكل فائز، ثم في الكتاب الذي نشر على أنه توسيع للفكرة احتياط كبير وتجنب للنقد، وتوسيع للبحث، وإثبات أنه ألمّ بالمفاهيم من أطرافها حتى بفكرة نيتشة السابقة عن الإنسان الطموح، اضطر أن يحاول أن يشير إلى أن غاية مطمح إنسان نيتشة هو إنسان فوكوياما، أما إنسان هيجل فقد أبدأ وأعاد الحديث حوله مثبتا أنه لم يسر على طريق الشيخ، ولم يؤمن بأفكاره حرفيا ولم ينتسخ عنه شيئا.

كل الذين شعروا بالنصر في كل العصور احتفلوا هذه الاحتفالية، ورأوا أنهم قد أمسكوا بعنان التاريخ، فقد رأى ذلك هيجل في بروسيا، ورآه أيضا ماكولي في الملكية الدستورية في بلاده إنجلترا، ترى ذكر هذا عند (وايتهد) وأرى كتابه هذا مصدرا لكثير من أفكار فوكوياما، ورآه علماء الدولة العثمانية، (راجع أبحاث خالد زيادة في هذا عن العثمانيين) ولعل هذه المواقف تنطلق من الفرحة بالنصر التي يؤولها الإنسان البسيط إلى عامل أو سبب آخر قريب لمزاجه وهواه، وهذا تفسير أرقى من التفسير العنصري الذي عادة ما يهيمن على المنتصر كما وقع فيه دارون، وفلسفه ابن خلدون. ونشير في فقرات سريعة إلى بعض موارد وقضايا فكرة نهاية التاريخ.

أحد معارفه ومناقشيه "بن بيكر" يرى أنه رجل غريب يؤمن بفكرة تثير الأعصاب، وهي فكرة أن التاريخ قد انتهى؟ وهل يرى هذا عاقل؟ ثم كيف يجمع بين هذه الفكرة وبين دور الهندسة الوراثية في صناعة عالم بل إنسان جديد، أليس هذا يعني بداية للتاريخ جديدة؟ والذي ربما لم يلاحظه كثيرون أن الكتاب: "نهاية التاريخ" بذل جهدا كبيرا في إحكام النظرية، فمن ناحية يغلق دائرة النقاش جهده، وفي الوقت نفسه يحاول أن يقول إن كل اعتراض قد حسب حسابه بما في ذلك تجدد وتطوير الأفكار، فهي مهما كانت لا بد أن تصب في الليبرالية والديموقراطية والرأسمالية! ويشنع على كل من فهم نظريته بمعناها البسيط أو المعقد، ويبقى الكتاب رحلة ممتعة بالرغم من متاعبها في الأفكار السياسية ونظريات الاقتصاد والتاريخ.

*** الليبرالية:**

أعجب من الليبرالي العربي، أو المسلم، أو أي ضحية لأفكار المحافظين على القيم الغربية، أن يجد في نفسه قبولا لليبرالية الغربية، بمعناها الحقيقي، فهي في البدء مصطلح اقتصادي، تعني حرية الرأسمالية الغربية في اجتياح أسواق العالم، وحقها هي فقط في وضع أنظمة وقيم للسوق، أهمها الحرية للاقتصادي الغربي أن يجتاح أسواق العالم، وألا يكون هناك في طريقه عائق من مستعمر آخر، ولا مواطن بلد أو قومية أو ملة أخرى في سنّ "تعريفات"، وقد نقلوا هذه الكلمة كما هي من العربية" لا تتناسب مع مصلحته، ثم تطورت هذا المصطلح ليعم قضايا أخرى بما فيها مبادئ الحريات، وعلاقة الناس بالأديان والأخلاق. "ممن يرون أسبقية المعنى الاقتصادي لليبرالية قبل غيره من المعاني: الفيلسوف الاقتصادي: هايك". وأعجب كيف يمتدح عربي -أيا كان معتقده، أو أي ضحية للاحتلال الغربي- مسألة الليبرالية الغربية، فهي حرفيا تعني استمرار أو عودة الاستعمار الغربي للشعوب المنتهكة سياسيا واقتصاديا وأخلاقيا، وبقاء الهيمنة على المستضعفين، وعدم أهليتهم، أو حقهم في إدارة ثرواتهم ونظمهم واقتصادهم.

وإليك رأي فوكوياما الذي يلقم الليبراليين حجرا، ويسخر بهم وبعقولهم ممن يرون فيه ليبراليا بامتياز، فهو من الذين وقعوا خطاب اجتياح العراق، وهو يضم صوته إلى صوت مدرسة الواقعية السياسية، وهي مدرسة ضد مدرسة المثالية، أو أصحاب القيم المثالية، فهو من صف كيسنجر، أي الوصول إلى المطلوب بأي وسيلة، ومثال واقعية كيسنجر مذابح تشيلي التي شجع أو أيد فيها (بينوشيه)

أن يقيم ديكتاتوريته العميلة الموالية لأمريكا وهي ضد الديمقراطية، وممتهنة بأقصى الصور لمسائل حقوق الإنسان، وأبادت الألوف، وهو من مدرسة كيسنجر في عموم موضوع العلاقات الدولية، والتي أبرز نماذجها (مراسلات كيسنجر- بارزاني)، فقد كان الأكراد لعبة يلعب بها فيلسوف ودبلوماسي محافظ على قيم الغرب بين إيران وتركيا والعراق، وقد مارس المحافظون الأسلوب نفسه أيام الرئيس ريجن وبوش الأب فيما يتعلق بمذابح الأكراد، والأسلحة البيولوجية التي أعطوها صدام ليقضي بها على الإيرانيين والأكراد، واستمر تأييدهم لصدام زمن الحاجة له، ثم انتقضوا عليه لما انتهى دوره لهم وبدأ يشعر بذاته ودورها، وتكرر الأسلوب نفسه مع القذافي، فقد أصبح مثالا يطلب من إيران وكوريا أن تحذوان حذوه، وقد كان مثالا للشر. ي

يقول صريحا في إيمانه بالمذهب الواقعي: "ولا يزال للمنظور الواقعي للعلاقات الدولية، باعتباره مذهبا إرشاديا، دلالته الأكيدة، بالرغم من المكاسب التي حققتها الديموقراطية في السبعينات والثمانينات من هذا القرن، فالنصف التاريخي من العالم لا يزال يتصرف وفق مبادئ الواقعية، وعلى النصف الآخر (أي دول ما بعد التاريخ) أن تطبق الوسائل الواقعية في تعاملها مع النصف التاريخي. وستظل العلاقة بين النظم الديموقراطية والنظم غير الديموقراطية تتميز بالشك والتخوف، وسيظل استخدام القوة هو الحكم النهائي في العلاقة بينها على الرغم من الدرجة المتزايدة من الاعتماد المتبادل في المجال الاقتصادي." نهاية التاريخ ص 244. ثم يفصل في مناقشته عن عقيدته : "فإن الواقعية باعتبارها نموذجا إرشاديا يبين كيف يسير العالم..."، ولست هنا لائما فوكوياما ولا وولفوتز ولا كيسنجر ولا بلير في الإيمان بالعقيدة الواقعية في السياسة، فتلك رؤيتهم كما يؤمنون بها، ولكن العجب فيمن يرى في هؤلاء فلاسفة مرشدين له بينما عقيدتهم تقطر احتقارا له وخطة واضحة في الهيمنة على بلاده اقتصادها وسياستها ودينها وكرامتها، وفعلة وولفوتز والمحافظين الجدد كان قد وعد بها كيسنجر في مقابلة شهيرة عام 1975م في مجلة بزنس ويك حين تحدث صراحة عن عودة الاستعمار المباشر للخليج.

إيمان كاتب أو مثقف بفكرة الواقعية السياسية الاستعمارية لبلاد العرب أو المسلمين أو غيرها فيه تناقض غريب مع بدهيات العقل والمصلحة، إلا أن تكون المصلحة شخصية وليست على مستوى بلد أو أمة أو عقيدة أو منطقة، لأنها حرفيا تعني أن تؤمن بالحق للمستعمرين أن يدمروا حياتك ليسعدوا بحياتهم، وأن يفقروك ليغتنوا، وأن يعلوا من قيمهم لتنهار قيمك، وتلك صراحة نصوص فوكوياما وممارسات المحافظين على قيم الاستعمار قديما وحديثا، وقيم المحافظين على العنصرية، والداروينية الاجتماعية.

إن كان أحد منا يرى في ليبرالية فوكوياما ومذهبه السياسي الواقعي طريقا محمودا للإيمان به فتلك قضية من المهم وضوحها، ولكنها صريحة في نفسها وفي ثقافة أتباعها، أنها تعني لشعوبهم الاحتلال للأنظمة والنهب للثروات، وتعني في حق كل غربي أن له أن يحتل ويدمر كل عائق وطني أو قيمي أو سياسي أو ديني يخالف مصلحته. لأن هذه القيم المحافظة غير قابلة أن تكون عالمية إلا في حالة واحدة وهو أن تمتهن وتحتل قوة أو دولة الجميع، فلا خلاف معهم لأنه قد انتهى وجودهم المصلحي المخالف وأصبحوا جزءا من الإمبراطورية التي لها حق تقرير المصلحة والواقع.

وهنا أسوق مثالا من واقعية هؤلاء المحافظين وهي أسعار "البترول"، فهذه الأسعار العالية ضد مصلحة الشعوب الغربية، ومنطق المدرسة الواقعية أن تخفض الأسعار ولو بالغزو، ولكن هناك سبب مهم غائب عن البعض، وهو أن شركات الإنتاج التي تكسب نحو نصف السعر شركات غربية، فالمصلحة للطائفة المتنفذة في قرار الواقعيين السياسيين، قائمة من ارتفاع الأسعار، ولو نزلت الأسعار عن مستوى مقبول لسقطت البنوك الممولة لشركات البترول الغربية، ولسقطت شركات نفطية كبيرة، هذا سبب؛ ثم سبب آخر أن هؤلاء المحافظين من كبار المستثمرين في حقل البترول وشركاته، فالمدرسة الواقعية تجعلهم يبقون الغبن الواقع على المستهلك الضعيف، ويستفيدون من تعالي نقمته على الدول العربية، التي يرونها مصدر الشر الاقتصادي والسياسي، فيبتزونها بدعم مشاريعهم الواقعية، وفي الوقت نفسه يستعيدون تدوير الأموال الداخلة للدول الضعيفة بأشكال أخرى؛ ثمن أسلحة واستثمارات وتطمينات، وتعويضات وإعادة بناء وما شابه.

*** الديموقراطية:**

لا يكره عاقل روح الحرية، وهي شوق المستضعفين في كل مكان، ومن دعا للحرية فإنه يدعو لولوج كرامة الإنسان، ولكن الديمقراطية التي يتحدثون عنها في أمريكا ليست ديمقراطية بلادهم التي ارتضوها لشعوبهم، وليست الديمقراطية التي وله بها الناس، إنها نمط جديد قديم، يعرفه كل من اصطلى بنيران السياسة الواقعية الاستعمارية، إنها حرية أن تصرخ، وأن تمتعض، وأن تنتخب وتنتخب ولكن لا تخرج بلادك من ربقة النفوذ، ولا تتصرف في قرارك بحرية، ولا في مستقبلك كما تريد.

ثم إن أمام عينك شاهد يفقأ عين كل مناور، فهذه إيران فيها ديمقراطية، تماما على شروط الانتخاب العادية، ولكنها تريد أن تكون مستقلة، بترولها لها وقرارها لها ولها دينها، ولكنهم لم يرضوا عنها ساعة من نهار، فهم يهددونها بوجود سلاح نووي، وكانت الحال من قبل أسوأ وهم بلا سلاح نووي، وهذا نهجهم مع كل ديمقراطية لا تستجيب لتحكمهم وديكتاتورية المحتل. فقبل الثورة الأخيرة سعى (مصدق) في برلمان منتخب لاستقلال بلاده، فأعادوا الشاه للحكم، وكان في الواقع قناعا للاحتلال، وسجنوا رئيس البرلمان!!

لو جاء شعب منا وقال هذه ديمقراطية على شروطكم لقالوا له من أول لحظة هذه ليست ديمقراطية ليبرالية؛ لأن فيها قبولا بالشريعة الإسلامية حاكمة لشيء من جوانب الحياة,أو بسبب ما يمكن أن يشموه من رائحة الاستقلال، وهكذا سيكون لكل قرار ما ينقضه، وكنت قد نشرت قريبا شيئا من هذا في مقال: "الفجر الكاذب للديمقراطية".

لندع كل هذا الكلام السابق ونقف مع جانب مهم من كتابة فوكوياما ومذهبيته السياسة، فهو من مدرسة كيسنجر، مدرسة السياسة الواقعية.

*** الواقعية:**

أحد المذهبيات السياسية واسعة الانتشار، وهي تقابل المدرسة المثالية، المدرسة الواقعية تنطلق من أن الإنسان مشغوف بالقوة، حصولا عليها، وتقديرا لها، واستجابة لها، وخضوعا، فتهتم بثبات القدرة القصوى على شن الحرب، والسعي الدائب للمزيد من القوة، وعدم مراعاة القوانين في وجه الحاجة للقوة، وعدم مراعاة الأخلاق في السياسة،تدفعها غريزتان إما العدوانية الحيوانية، أو الرغبة في الأمن، وهذا الأخير تبرير الواقعيين المقدم للناس اليوم. أما المثالية فهي المدرسة التي ترى ممارسة العلاقات الدولية من خلال مؤسسات دولية ومبادئ قانونية، وتنطلق من أولوية الأخلاق في العلاقات بين الدول. (النظرية في العلاقات الدولية)، عدة مواضع.

يعترف فوكوياما بأصل المدرسة الواقعية، وأنها الميكافيلية، الغاية تبرر الوسيلة، ويقول: "لقد كان ماكيافيلي المبشر الحقيقي بالواقعية،.. وأنه على خير الدول أن تتبنى سياسات أسوأ الدول إن هي أرادت البقاء.. غير أن أفصح المدافعين عن الواقعية في الجيل الماضي هو هنري كيسنجر.. الذي رأى أن مهمته في المدى الطويل هي أن يعلم الجمهور الأمريكي كيف يتخلى عن الليبرالية التقليدية للرئيس ويلسون، وكيف يتبنى فهما أكثر واقعية للسياسة الخارجية، والواقعية هي ما يميز تفكير تلاميذ كيسنجر، وخاصة العديدين ممن استمروا في تكييف السياسة الخارجية الأمريكية... ونقطة البداية في كل النظريات الواقعية هي افتراض أن الافتقار إلى الإحساس بالأمن هو المظهر الدائم للنظام الدولي بسبب الطابع الفوضوي المستمر لهذا النظام. فحيثما لا يكون ثمة حاكم للعالم تظل كل دولة عرضة للخطر من قبل كل دولة أخرى، ولن يكون هناك علاج لإحساسها بعدم الأمان إلا باستخدامها السلاح للدفاع عن نفسها". نهاية التاريخ، ص 218. وكما تقرأ في هذه الطريقة في التحليل الصورة الواضحة لثقافة ميكافيلي وتلميذه كيسنجر وتابعه فوكوياما، ثم تعهد بوش الابن العلني بالحروب الاستباقية، وحق أمريكا بالقتل وانتهاك البلدان الأخرى بمجرد الشبهة، وهذه دعوى أوهى من الكذب في قصة العراق، إذ يكفي في هذه الحالة تقرير صحفي كاذب أو صادق لاحتلال بلد.

وإن لم يتيسر ذلك فالعمل باستغلال الايديولوجيا، -مثل ما يحدث اليوم من وعود الديمقراطية، أو إرهاب الناس بتهمة أنهم بعثيون أو أصوليون أو غير ذلك- والأفكار البراقة لإرهاب الشعوب الأخرى، واقرأ أحد مراجع فوكوياما التي لا نحمله مسئوليتها، ولكننا نرى تطبيقها في قضية المتاجرة بالديمقراطية التي تعني بلا موارية الاحتلال، ونهب الضعفاء: "من أخص خصائص السياسة إجبار الممثل على مسرح السياسة على استخدام الأيديولوجيات حتى يخفى الهدف المباشر لأفعاله..- وهو دائما نيل السلطة-" ص 218 . كما أن هذه المجموعات الواقعية لا تستند إلى مؤسسة مشروعية قانونية، ولا تثق بالقانون الدولي ولا بالأمم المتحدة، وهذا ما يفسر موقف هؤلاء اليوم من هذه المؤسسات. فبوش اليوم يصر على تعيين الصهيوني بولوتن ممثلا لأمريكا في هيئة الأمم المتحدة، وهو من عرف بشتم الأمم المتحدة، واحتقار دورها و مكانتها.

ففوكوياما إن تخلص من ميكافيلي فهو أسير كيسنجر، لا يمل تبجيله والاستسلام لمواقفه، بل يرى كتابه رسالة الماجستير عن ماتيرنيخ وزير خارجية النمسا مثالا لدراسة المدرسة الواقعية في السياسة. إن ما سقناه هنا هو جانب من ملامح المنظّر السياسي المنحاز عندما يبرر السياسة فلسفيا!

فوكوياما: مثقف الاحتلال 2-2

02-6-2005

ما الذي لم نتوقعه؟ لم نتوقع أن فوكوياما كاتب تقارير ودارس إمبريالي كسابقيه ومعاصريه ولاحقيه همه أن يسخر المعرفة للسيطرة على الشعوب الضعيفة، وذلك مصدر نقمته على الكتّاب الذين عرفوا الاستشراق والاستعمار والإمبريالية بدقة، مما جعل أمثال فوكوياما يحذرون منهم تحت أكذوبة أن هؤلاء يبالغون في تصوير المثقف الغربي الحكومي غالبا كواحدة من وسائل المستعمرين تحت ستار الثقافة. وهذه قصة حية ولم تمت.

بقلم **د. محمد الأحمري**

مواد ذات علاقة

[فوكوياما الشخص -1-]

(من المراقبة لكثير من توجهات الثقافة الأمريكية نلاحظ أنها تتجه باتجاه الثقافة البريطانية في نهاية القرن التاسع عشر، وبداية العشرين، حين كان يتجه المثقفون إلى مهنة الموظف الاستعماري).

نتابع جوانب مهمة من مواقفه السياسية ومهاده الفكري، فهو يقرر في أماكن عديدة ولاءه لقادة المحافظين الجدد، ثم يكتب لهم الإرشادات، ويعيب عليهم التقصير في بناء الشخصية التابعة الخنوعة للشعوب المحتلة، وستجد فيما يلي من المقال شواهد ذلك، وقد تركت الكثير مكتفيا بالإشارة لبعض المقالات، ومنها مقالة: "هل ابتدأ التاريخ مرة أخرى" على موقعه في الإنترنت، وفي مقابلة مع إليزابيث ليفي بعد صدور كتاب اللحظة كما-يسخر منه خصومه-: "بناء الدولة: الحكم ونظام العالم في القرن الحادي والعشرين"، يشير بالدولة إلى الدولتين اللتين هدمتهما أمريكا 'أفغانستان والعراق' وغيرهما، وكيف يعاد بناؤهما. يعترف للكاتبة "أنه يفضل الصهيوني المتطرف بول وولفوتز من المحافظين الجدد الذي كان -كما يقول- مديرا للجامعة التي كان يعمل فيها"، وسبق لفوكوياما أنه كان مع أساتذته من المحافظين الجدد من ضمن قائمة الذين قدموا خطاب طلب غزو العراق في يوم 12 سبتمبر 1م، (راجع مقال الإسلام وأمريكا أعداء أو خصوم) بقلم لال خان، من الشبكة.

ولم يكن تصرفه ذلك فيما تبين للجميع لاحقا إلا موقفا إمبرياليا استعماريا، ونحن في هذه الحالة أبعد عن أن نحترم له هذا، ولا كل الأحرار في العالم، ولا أنصار الحرية ولا المدعون بالليبرالية من الشعوب المغلوبة على أمرها. وإن لم يكن هكذا، فهو موقف متفان في خطة المحافظين الجدد، ذلك أن أساتذته الصهاينة يرون ذلك، وهي عقدة موجودة مع الأسف لدى كثير من المثقفين الأمريكان -بشتى توجهاتهم، الدينية والسياسية- إذ يملي عليهم الصهاينة بزعمهم أن بقية الأمريكان والغربيين لا يعرفون العرب ولا المسلمين ولا الشرق الأوسط، فهم يتولون تعريفهم، ودلالتهم في المنطقة المخيفة العالم الإسلامي.

وبهذا يصادر الصهاينة الأمريكان حق أي مثقف أمريكي في معرفة المنطقة بنفسه، وهذا العذر الذي نصطنعه لفوكوياما، على الرغم أنه غير معذور، كيف وقد تولى منصب التخطيط السياسي للحكومة الأمريكية وتعرف عن قرب عليها.

من المراقبة لكثير من توجهات الثقافة الأمريكية نلاحظ أنها تتجه باتجاه الثقافة البريطانية في نهاية القرن التاسع عشر، وبداية العشرين، حين كان يتجه المثقفون إلى مهنة الموظف الاستعماري، فنرى الكاتب المتقن لفنون حكم الشعوب الأخرى وتركيعها وإخضاعها، وزرع عدم الثقة فيها والتعامل معها كموضوع للدراسة، والبحث والفهم، فهي مصدر طاقة وقوة ونفوذ وغنيمة تحتاج إلى حسن إدارة الموارد. وذلك ما تجدونه من زخم الكتب الغريبة والدراسات والرحلات، ودراسات المجتمعات المغلوبة على أمرها، ولم يكن لنا من دور في هذه القصة الطويلة التي بدأت أمريكا تفتح أبوابها علينا إلى نفس هذه القصة مكرورة، فبعد الاحتلال الفرنسي والإيطالي والبريطاني، جاءت الإمبراطورية الأمريكية بمستشرقيها الإداريين لتتحدث عن المستعمرات وثقافتها، في قصة مكرورة ممجوجة ثقيلة الدم رديئة الإخراج.

تقولون كيف تقول هذا عن فوكوياما؟ أقول لقد خلع لباس الثقافة والفكر في أحد مقالاته التي وجدتها وأنا أبحث عن مقالاته في الإنترنت، كتب لينذر قومه أنهم لم يعرفوا ثقافة الشعوب المغلوبة على أمرها، ولم يدرسوها، ولم يستبطنوا مجتمعاتها، ولم يعرفوا لغاتها، فلم يكن في "السي آي آيه" من يعرف لغة البشتون إلا نحو أربعة أشخاص، وليس من السفراء الأمريكان من يعرف العربية إلا ندرة، وينظر لحكومة بلاده أن عليها أن تربي الشعوب الأخرى بحيث ترى الأمور من المنظار الأمريكي، حرفيا يقول: "لن نستطيع أن نشارك أو ننشر تأثيرنا حول العالم إلا إن نكون قادرين على تدريب غير الأمريكان ليروا الأشياء من منظورنا، أو نساعدهم ليكتسبوا الوسائل العقلانية التي تجعل التحليل الهادئ -أو النزيه- ممكنا" ثم يدعو إلى الدراسة الإقليمية للعالم العربي والإسلامي.

ما الذي نتوقعه فأخلفنا الظن؟ وما الذي لم نتوقعه؟ وماذا يحسن بنا أن نفهم من هذا؟

إن كنا نطلب من فوكوياما أن يفهمنا، فهو يحب أن يفهمنا فعلا، وكثير من المستعمرين والمحتلين من الفرنسيين والبريطانيين واليهود والإيطاليين بذلوا جهودا صادقة لفهمنا، ولفهم الأفارقة والهنود والآسيويين والهنود الحمر وجميع الشعوب المقهورة، ولم نزل موضع دراساتهم منذ تعالت مصالحهم الاقتصادية والدينية والسياسية في بلادنا.

ما الذي لم نتوقعه؟ لم نتوقع أن فوكوياما كاتب تقارير ودارس إمبريالي كسابقيه ومعاصريه ولاحقيه همه أن يسخر المعرفة للسيطرة على الشعوب الضعيفة، وذلك مصدر نقمته على الكتّاب الذين عرفوا الاستشراق والاستعمار والإمبريالية بدقة، مما جعل أمثال فوكوياما يحذرون منهم تحت أكذوبة أن هؤلاء يبالغون في تصوير المثقف الغربي الحكومي غالبا كواحدة من وسائل المستعمرين تحت ستار الثقافة. وهذه قصة حية ولم تمت.

وهو بكل قوة وصراحة يروج لسيطرة الاحتلال وجعل الاحتلال وثقافته تقبل بطريقة علمية وثقافية تجعلنا نفكر تفكيرا عقلانيا هادئا، ولكن العقلانية الهادئة كما يسميها هي أن نقبل كل شيء عندهم وأن نفكر مثلهم؟ حسنا فهل يسمحون لنا أن نفكر مثلهم؟ قد نتمنى ولكن ذلك مستحيلا، إلا إذا فهمنا أن التفكير مثلهم يعني أن نفكر بمصلحتهم وضد مصلحتنا، وقد نجحوا في ذلك، وإلا فلماذا لم يفكر

الأمريكان في الثورة الأمريكية -أو حرب الاستقلال- كما يفكر الإنجليز المحتلون لأمريكا ويفكرون بمصلحة الملك والتاج البريطاني ويكونون مواطنين صالحين مثقفين متعقلين ولا يثورون على الملك، وهو يشاركهم الدين والجنس نفسهما؟

هم لم يكونوا عقلانيين ولا مثقفين ولا متنورين، فيرضخوا للمستعمر البريطاني؟ بل دخلوا في ظلام الإرهاب والثورة والعنف والتمرد كما تفعل المستعمرات، فإن انتصرت كانت ثورة العدل والحرية ومبتغى الإنسانية وغاية تطورها، وإن فشلوا كانوا عصابات إرهاب وعنف مدمرة.

وكما يقول البريطانيون وقتها؛ فقد انتصر المجرمون والهاربون من السجون والمتطرفون والمهووسون دينيا بإقامة "كيان للمارقين"، أعداء المدنية، -كما كانوا يعيرونهم- سمّوه بـ 'الولايات المتحدة الأمريكية'، وأحرق البريطانيون مكتبة الكونجرس 1812م، ليبقوا هؤلاء المارقين مجموعات متوحشة جاهلة فاقدة للأمل وللمعرفة، وعاودوا محاولات تدمير أمريكا عدة مرات تماما كما فعل الأمريكيون مع مكتبة بغداد، ومع محاولات التدمير المتكررة منذ 199.

وكل كلام اليوم عن الديمقراطية والحضارة فذلك في بهدف تجميد الغنيمة وتبريدها وجعلها تفكر بمصلحة أمريكا، كما يكرر فوكوياما اقتراحات قرون من قبله، وقد أصبحت هذه الأفكار تجري في دمه وتكوينه فلا يعرف غيرها ولا يستطيع فهم الأمور بغير هذه الطريقة، مثل الذين يقاومون الاحتلال والذين قاوموا الاحتلال البريطاني في أمريكا يفكرون بهذه الطريقة ولا يكذّبون أحدا، إن المصلحة والفطرة تمتزجان بحيث يصعب الفصل بينهما! لماذا يريدنا أن نفكر بمصلحته؟ وندوس مصالحنا ومصيرنا؟ وهل المكافأة والألقاب الجذابة التي سوف يهبونها لنا في حال قبلنا عن رضا مثل ألقاب: "مثقفين، وواعين، وأذكياء، وأمناء وليبراليين، ومتنورين، وتقدميين، وديمقراطيين، ومن سكان العالم الحديث، وإلى آخر الألقاب التي يمتدح بها السادة عبيدهم المطيعين، المؤهلين أن ينعموا بالخمول في المستعمرات.

وقد عجبت مرة لنص كتبه جبران خليل جبران يصف فيه الألقاب التي يطلقها السيد الأمريكي على عبيده المطيعين السود، فكلها تمجيد له كلما أغرق في عبوديته، وإذا لاحت عليه تصرفات أو سيماء الحر الكريم، أطلقت عليه ألقاب الوحشية والتخلف والتمرد والمروق، والفرق أن ألقاب العبيد بالأمس كانت تطلق على من يتمرد في داخل القارة، واليوم خرجت من القارة ليوصف بها الخارجون على الطاعة في الخارج كما يلقي السيد.

أكاد أقول إن فوكوياما لم يفكر بعقل إجرامي وهو يصنع ويردد تلك المفاهيم، إنه استجاب فقط لنداء الثقافة الغربية التي تسكن كيانه وتحاصر عقله، وتستبد بكل شيء، إنه منسجم مع ثقافته ومع ثقافة الاحتلال واحتقار المغلوبين، ثقافة وفكرا وسلوكا.

مثله مثل الكتاب المهتمين والدارسين للمستعمرات، سواء كتب تقريرا، أو أرشد لقرار، أو وقع على بيان صهيوني طلب توجيه قوات لغزو المتمردين في بغداد أو غيرها، إنه يمثل بالنسبة لنا ثقافة المستعمر المستبد وإرشاداته، وهي تقارير معادة، لا يختلف فيها كاتب تقرير عن آخر، غير أن لفوكوياما جانبا آخر غير الشخصية الاستعمارية وفكرتها:

موقفه من الإسلام.

يصنف فوكوياما على أنه علماني، وليس مهتما بالدين، على الرغم من كونه ابن قسيس مبشر، تولى التبشير حتى في خارج أمريكا، ولا نلحقه بثقافة والده، ولا ندينه بثقافة خلّص أصدقائه من المتعصبين الصهاينة، المروجين له. ولا نلومه في أن نحمله عبء الثقافة الغربية المسيحية والعلمانية تلك التي تكره ابتداء الثقافة الإسلامية، وتكره رموزها وأشكالها وتاريخها، لسبب عميق في تركيبة ثقافة هؤلاء، أنهم ينشأون في الكنيسة أو الشارع على كراهية الذين سلبوا منهم مهد المسيحية، هذا عند المتدينين، وعند العلمانيين نحن متعصبون، أصحاب دين يمتهن الإنسان، دين غريب وعدواني، وإن ذهبت في ثقافتهم يمينا أو شمالا فإن المكتبة الغربية تنشئ أهلها على كراهية المسلمين، وقد عرفت هذا من معايشة طويلة ومناقشة لشتى الفئات. وقلة جدا من يسلم من وباء ثقافة الكراهية للمسلمين، أو تكون عنده الشجاعة على تجاوزها، وهم موجودون دائما.

نتجاوز ذلك ونقرأ له يقول: "صحيح أن الإسلام يشكل أيديولوجية متسقة ومتماسكة شأن الليبرالية والشيوعية، وأن له معاييره الأخلاقية الخاصة به ونظريته المتصلة بالعدالة السياسية والاجتماعية. كذلك فإن للإسلام جاذبية يمكن أن تكون عالمية، داعيا إليه البشر كافة باعتبارهم بشرا لا مجرد أعضاء في جماعة عرقية، أو قومية معينة. وقد تمكن الإسلام في الواقع من الانتصار على الديمقراطية الليبرالية في أنحاء كثيرة من العالم الإسلامي، وشكل ذلك خطرا كبيرا على الممارسات الليبرالية حتى في الدول التي لم يصل فيها إلى السلطة السياسية بصورة مباشرة. وقد تلا نهاية الحرب الباردة في أوروبا على الفور تحدي العراق للغرب، وهو ما قيل (عن حق أو عن غير حق) إن الإسلام كان أحد عناصره"، ويستمر في القول: "غير أنه بالرغم من القوة التي أبداها الإسلام في صحوته الحالية، فبالإمكان القول: إن هذا الدين لا يكاد يكون له جاذبية خارج المناطق التي كانت في الأصل إسلامية الحضارة. وقد يبدو أن زمن المزيد من التوسع الحضاري الإسلامي قد ولى. فإن كان بوسع الإسلام أن يكسب من جديد ولاء المرتدين عنه، فهو لن يصادف هوى في قلوب شباب برلين، أو طوكيو، أو موسكو، ورغم أن نحو بليون نسمة يدينون بدين الإسلام (أي خمس تعداد سكان العالم) فليس بوسعهم تحدي الديمقراطية الليبرالية في أرضها على المستوى الفكري. بل إنه قد يبدو أن العالم الإسلامي أشد عرضة للتأثر بالأفكار الليبرالية على المدى الطويل من احتمال أن يحدث العكس، حيث إن مثل هذه الليبرالية قد اجتذبت إلى نفسها

أنصارا عديدين وأقوياء لها من بين المسلمين، على مدى القرن ونصف القرن الأخيرين. والواقع أن سبب الصحوة الأصولية الراهنة هو قوة الخطر الملموس من جانب القيم الغربية الليبرالية على المجتمعات الإسلامية التقليدية"، 56-57.

ثم يمتدح تركيا لأنها "الدولة الوحيدة التي طرحت التراث الإسلامي جانبا في صراحة تامة، واختارت مع بدايات القرن العشرين إقامة مجتمع علماني"، 193 وفي نص آخر يقول: "ولم تكن حركة إحياء الأصولية الإسلامية التي ظهرت مع الثورة الإيرانية عامي 1978 ، 1979 مجرد حالة من حالات استمرار "القيم التقليدية"' في العصر الحديث. ذلك أنه كان قد سبق خلال المائة عام الماضية أن ألحقت الهزيمة الساحقة بهذه القيم العفنة المتهاوية. وإنما كانت حركة الإحياء هذه تأكيدا جديدا للحنين إلى مجموعة من القيم الأكثر عراقة ونقاء يقال إنها كانت قائمة في الماضي البعيد، وأنها غير القيم التقليدية للماضي القريب الذي ثبت فسادها، وغير القيم الغربية التي نقلت إلى الشرق الأوسط في صورة شوهاء، وفي كل هذا نرى تشابها أكثر من أن يكون سطحيا بين الأصولية الإسلامية والنازية الأوربية.. ولا يمكن إدراك قوة الإحياء الإسلامي إلا إن أدركنا عمق الجرح الذي أصاب كبرياء المجتمع الإسلامي بسبب فشله المزدوج في الحفاظ على تماسك المجتمع التقليدي، والتمكن من تمثل تقنيات الغرب وقيمه"، 21 .

إن موقفه السابق موقف عنصري متعال، فهو صاحب القيم المنتصرة على أي حال، وهي أفكار يشعر المسلمون تجاهها بالجرح لخسرانهم لقيمهم، والإسلام أيديولوجية لا تجذب أحدا، من الشعوب العليا في برلين، أو طوكيو، أو موسكو؟؟

ترى لماذا يجن جنون الحكومات الغربية من انتشار الإسلام، ومدارسه، وتسن القوانين التي تمنع مظاهره وتمنع انتشاره، وتجرم أهله، وتطارد دعاته؟ ثم هو يعبر صراحة وضمنا عن كراهته لهذا الدين الذي نشأ على كراهته، ثم يبجل تركيا التي اطرحت الإسلام الذي يكرهه!